رحلة ابن بطلان

دراسة موضوعية فنية

ژاله جوهر حويز

فاكلتى العلوم الانسانية و الاجتماعية، جامعة كوية، كوية، اقليم كوردستان، العراق.

المستخلص– إنّ الأدب بوجه عام يعكس واقع الأمم في كل زمان ومكان ، ولاسيما أدب الرحلة الذي يجعل صاحبه يتنقل هنا وهناك ليشاهد واقع الشعوب ، ويسجل ملاحظاته وتجاربه ، وبهذا أصبح أدب الرحلة سجلاً حافلاً بأحداث العصر ، وشاهداً عليه ، وترجع قيمة الرحلة إلى ما تحتويه من معلومات ممزوجة بثقافة كاتبها ؛ لذلك عني العرب بها قديماً وحديثاً ، وأصبحت أرضاً خصبة لكثير من الأبحاث والدراسات ، واقتناعاً بأهمية أدب الرحلة اخترنا موضوع (رحلة ابن بطلان : دراسة تحليلية) ، هادفين من وراء تلك الدراسة الكشف عن أهمية أدب الرحلة في تصويره للواقع ولشخصية صاحبنا (ابن بطلان) ، والعوامل التي دعته للقيام برحلته ، ولم يكن هذا البحث هو الأول من نوعه الذي سبق لطرق باب دراسة أدب الرحلة بل كان هناك العديد من الدراسات التي كانت مصابيح هداية أضاءت أمامنا الطريق ؛ لتكون تلك الدراسة خلفاً لما قبلها من الدراسات ، وسلفاً لما بعدها ، أما هيكل البحث : فقد وزعنا المادة العلمية للبحث على ثلاثة مباحث ، فجاء المبحث الأول ليحدثنا عن أدب الرحلة ، وترجمة (ابن بطلان) ، ثم جاء المبحث الثاني في وصف رحلة صاحبنا (ابن بطلان) ، وبيان أهميتها، والكشف عن مضمونها ، ثم جاء المبحث الثالث ليُطلعنا على الخصائص المميزة لمضمون هذه الرحلة.

الكلمات الدالة- أدب الرحلة، ابن بطلان، ابن رضوان، الدراسة الموضوعية، الدراسة الفنية.

1. المقدمة

١,١. مدخل : يعد أدب الرحلة وعاء معرفياً يضم مختلف أنواع الثقافة الإنسانية ، وهو الوصف الأكثر تعبيراً والأنسب ، ففيه مادة خصبة للمهتمين بالتاريخ وأنماط الحياة الاجتماعية ، فما كُتب فيه يعد وثائق إنسانية مهمة للاطلاع على روافد المعرفة ومخرجاتها، فأدب الرحلة فن يحكي فيه الرحال أحداث سفره ، وما شاهده وعايشه ، مازجاً ذلك بانطباعاته الذاتية ، الأمر الذي يتطلب أن يكون الرحال ذا مستوى ثقافي معين ، يؤهله لنقل أحداث سفره.

١. ٢. سبب اختيار الموضوع : اقتناعاً بأهمية أدب الرحلة اخترنا موضوع (رحلة ابن بطلان : دراسة تحليلية) ، هادفين من وراء تلك الدراسة الكشف عن أهمية أدب الرحلة في تصويره للواقع ولشخصية صاحبنا (ابن بطلان) ، والعوامل التي دعته للقيام برحلته.

١. ٣. صعوبة البحث : تعرضنا لصعوبات كثيرة في هذا البحث ، ولكن بفضل (الله) وتوفيقه استطعنا التغلب عليها ، وكان من هذه الصعوبات ضياع كثير من نصوص رحلة (ابن بطلان) ، حيث إنّها لم تأت في مؤلف مستقل ، وكذلك عدم وجود قواعد وأسس يُعتمد عليها في دراسة أدب الرحلة ، فجاء بحثنا ليكون اقتراحاً جديداً لدراسة أدب الرحلة.

٤,١. الدراسات السابقة : كثيرون من كتبوا في أدب الرحلات ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : (حسني حسين) في كتابه أدب الرحلة عند العرب ، و (حسين محمد فهيم) في كتابه (أدب الرحلات) ، و (حسين نصار) في كتابه أدب الرحلة ، و (فؤاد قنديل) في كتابه الرحلة في التراث العربي ، و (ناصر موافي) في كتابه الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، إلا أنّ هذه الدراسات وغيرها لم تتعرض لرحلة (ابن بطلان) بالتحليل والنقد.

٥,١. منهج البحث : هو منهج قائم على الجمع ، والترتيب ، والتحليل لنصوص الرحلة ، والموازنة بين بعض الأحداث ، والتعرف على شخصية صاحبنا (ابن بطلان) من خلال نص الرحلة.

٦,١ . هيكل البحث : وزعنا المادة العلمية للبحث على ثلاثة مباحث :

١,٦,١: المبحث الأول يتكون من مطلبين ، فجاء المطلب الأول في الحديث عن أدب الرحلة ، والمطلب الثاني في ترجمة (ابن بطلان).

ثانياً : المبحث الثاني في الدراسة الموضوعية ، ويتكون من مطلبين ، تحدثنا في المطلب الأول عن وصف الرحلة ، وأهميتها ، كما تحدثنا في المطلب الثاني عن مضمون الرسالة، حيث يقدم لنا فيها وصفاً لبعض مدن الشام التي مرّ بها ، وظهرت من خلاله المعالم الطبيعية والبشرية في ذلك الوقت ، كما جاء في وصفه لهذه المدن تصويراً لجانب من الحياة السياسية والاجتماعية.

ثالثاً : المبحث الثالث في الدراسة الفنية ، ويتكون من مطلبين ، فجاء المطلب الأول ليحدثنا عن الخصائص المميزة لمضمون الرحلة ، والمطلب الثاني عن الخصائص المميزة لأسلوب الرحلة ، إضافة إلى ذلك ذكر أهم الاستنتاجات والتوصيات التي توصلنا إليها، وملخص باللغتين الكردية والإنكليزية.

مجلة جامعة التنمية البشرية

المجلد 9، العدد 4 (2023) ؛ عدد الصفحات (10)؛ معرف الكائن الرقمي: 10.21928/juhd.v9n4y2023.pp89-98

ورقة بحث منتظمة: أُستلم البحث في 15 ايار 2023 ؛ قُبل في 25 حزيران 2023؛ نُشرت في 1 تشرين الثانى 2023؛

البريد الإلكتروني للمؤلف: zhala.jawhar@koyauniversity.org

حقوق الطبع والنشر © ژاله جوهر حويز. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 4.0

المبحث الأول

المطلب الأول
أدب الرحلة

أ-الرحلة : لغة : الرحلة من الرَّحْل : مركب للبعير والناقة ، وجمعه أرحل ورِحال ، يقول (ابن سيده) : (ورحل البعير يَرْحَلُه رحلاً ، فهو مرحول ورحيل ، وارتحله : أي جعل عليه الرَّحل ، ورحله رحلةً : أي شَدَّ عليه أداتَه) ، ويقال : ناقة رحيلة : أي شديدة قوية على السير ، وكذلك جمل رحيل ، وبعير ذو رُحلة ورِحلة : أي قوة على السير. (ابن منظور ، مادة رحل)

ب-الرحلة : اصطلاحاً : الرحلة من الارتحال ، وهي الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين مادياً كان أو معنوياً ، أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السفر.

ج-الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية : شجع الإسلام الناس على السفر والسياحة طلباً للعلم والمعرفة ، التي تعود عليهم بالفائدة ، وقد ذكر ذلك في (القرآن الكريم) في قوله تعالى :(إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤)(سورة البقرة) ، وكذلك قوله عز وجل : (وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ٤١) (سورة يس) ، وقوله تعالى : (لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ٤) (سورة قريش)

كما حث (الرسول) {عليه الصلاة والسلام} على الرحلة من أجل طلب العلم ، يقول : (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله عز وجل به طريقاً من طرق الجنة.) (أبو داود : رقم 3641)

د- أدب الرحلة : حاول كثير من الباحثين إيجاد تعريف شامل لأدب الرحلة ، فكانت النتيجة أنّ كل واحد منهم عرّفه من خلال ما وقع بين يديه من النصوص ، فكانت هذه التعريفات من وجهة نظر كل واحد منهم ، وحسب اجتهاده ، وبما توفر بين يديه من نصوص.

ومن الذين قدموا أوصافاً لأدب الرحلة (حسين محمد فهيم) ، فيصفه بأنّه رواية التفاعل بين الذات والآخر (فهيم ، 1989 ، ص 15) ، في حين يصف (فؤاد قنديل) الرحلة بأنّها سلوك إنساني حضاري ، يؤتي ثماره النافعة على الفرد والجماعة (قنديل ، 21) ، ويقدم (فايز فرح) وصفاً لأدب الرحلة ، فهو –عنده- أبو الآداب ، لأنّه يحوي بداخله كل ألوان الأدب وفنونه مع العلوم الإنسانية الأخرى ، والترجمة الشخصية لمشاهير البلاد والدول التي يزورها الرحال.(فرح ،بلا تاريخ ،ص 5).

ولعل أدق هذه التعريفات وأشملها ما نجده عند (ناصر موافي) ، فأدب الرحلة هو (مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة ، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات ، وسلوك ، وأخلاق ، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها ، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة ، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد.) (موافي ، 1995،ص 38) .

فهو بذلك يجمع العناصر التي يتكون منها نص الرحلة ، بداية من كون الرحلة واقعية، ثم أسلوب الكاتب في التعبير عن رحلته ، إلى تدوين ذلك ، أو حكايته لغيره ، وهو بذلك يجمع بين طرفي هذا النوع من الأدب ، وهما : الموضوع أو الرحلة ذاتها من ناحية، وشخصية الرحال من ناحية أخرى.

وعلى هذا ، فقد أبرزت التعريفات السابقة عدة عناصر يتكون منها أدب الرحلة ، أهمها : الواقعية والدقة في الأسلوب ، ووجود شخصية الرحال واضحة جلية من خلال رحلته ، وإلا أصبحت خالية من روح الأدب ، مثلها مثل كتب التاريخ أو المؤلفات العلمية الجافة.

علي أية حال ، فإن كان نص الرحلة ينتسب إلى النثر الأدبي فإنّ هذا يعني أنّه يأخذ أشكالاً متعددة من فنون النثر كالمقالة ، والقصة ، والرواية ، والرسائل ، والمناظرات ، والحوار ، والمقامات ، والمسرحيات ، وذلك لأنّ النثر يتيح للرحال حرية الوصف والحركة دون قيود أو معوقات ، لذا فإنّ استخدامه يصبح مبرراً بل ضرورياً ، ولكن ليس معنى ذلك خلو نص الرحلة من الشعر ، فإننا قد نجد رحالاً يكتب رحلته نثراً وشعراً ، ويضمنها بعض نصوص الشعر سواء كانت من نظمه ، أو من نظم غيره.

ولم يكن غريباً على أدب الرحلة أن يتصل بفنون متعددة من فنون الأدب ، فإنّنا نقرأ فيه المقالة الوصفية ، والنقدية ، والترجمة الذاتية لمشاهير العلماء ، والحكاية التاريخية ، وكذلك تنوع أسلوبه من أسلوب السرد القصصي إلى الحوار ، ثم إلى الوصف ، ومنه إلى الشعر ، وبهذا تتنوع طرائق التعبير فيه ، ويصبح مجالاً واسعاً ، ومرتعاً خصباً تنمو فيه الأساليب النثرية والشعرية مما يثري هذا اللون من الأدب لتعدد فنونه.

المطلب الثاني
ترجمة (ابن بطلان)

(ابن بطلان) (ت : 458هـ) :

عصره : عاش (ابن بطلان) في القرن الخامس الهجري ، ذلك العصر المضطرب الذي لم يتجاوز فيه سلطان الخليفة في واقع الأمر بغداد ونواحيها ، وكانت (حلب) آنذاك تحت حكم المرداسيين ، بينما كانت (أنطاكية) في قبضة البيزنطيين ، أما (مصر) فقد سيطر عليها الفاطميون ، وعلى الرغم من هذا فقد كانت حرية التنقل مكفولة لا في داخل العالم الإسلامي فحسب ، بل حتى بين الدولة البيزنطية وأراضي الإسلام.(كراتشكوفسكي ،1965 ، ج 1/ ص 262).

ومن الملامح الاجتماعية لهذا العصر التسامح بين أهل الديانات المختلفة ، فقد ساد الوفاق بين المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، ولم تتدخل الحكومة في الشعائر الدينية لأهل الذمة ، وكانت الأديرة منتشرة في بغداد ، يقيم فيها النصارى واليهود ، ويمارسون شعائرهم الدينية في أمن وطمأنينة.(سليمان ،2008 ،ص 15)

أما من الناحية العلمية والأدبية ، فقد تميز القرن الخامس الهجري بوفرة الإنتاج العلمي والأدبي ، ويرجع ذلك إلى تشجيع حكام الأقاليم الطامعين في الانسلاخ عن (بغداد) ، وإغداق العطايا على العلماء والأدباء ، فنجد حركة الترجمة والنقل تزداد حدة وقوة ، وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، وامتزجت العلوم العربية بغيرها ، وتعددت رحلات العلماء والأدباء ، كما كانت المذاهب الدينية كثيرة في ذلك العصر ، فزاد الاحتكاك بين أصحاب المذاهب مما زاد في تنشيط الحياة الفكرية ، والاهتمام بالعلوم والآداب.(مصطفى ،1019، ص 3).

اسمه وكنيته : أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان ، نصراني من أهل بغداد.(القفطي ،2005 ،ص 222 ، و ابن أبي أصيبعة ، بلا تاريخ ، ص 325 ، و ابن العبري ، 1997،ص 183 ، و أرسلان ،بلا تاريخ ،ج 1/ ص 354، و كراتشكوفسكي ،1965، ج 1/ ص 261 ، و الزركلي ،2002 ،ج7/ ص191 ، و زيدان ،1913، ج3/ص 105 ، و قنديل ، 2010، ص 313).

مولده ووفاته : (ولد بـ(بغداد) حيث درس الفلسفة والطب ، وتوفي بـ(أنطاكية) على ما يبدو عام 458هـ ، ولو أنّ المصادر غير مجمعة على تاريخ وفاته.) (كراتشكوفسكي ،1965، ج1/ص261).

تعليمه : كان قد تعلم على ((أبي الفرج عبد الله بن الطيب) ، وتتلمذ عليه ، وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها ، ولازم أيضاً (أبا الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني) الطبيب ، واشتغل عليه ، وانتفع به في صناعة الطب ، وفي مزاولة أعمالها.) (ابن أبي أصيبعة ، بلا تاريخ ، 325).

ويذكر (فؤاد قنديل) أنّ (ابن بطلان) تعلم الطب على يد أستاذيه : (أبي الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني) المتوفى 369هـ/980م ، و (أبي الفرج عبد الله بن الطيب) المتوفى 435هـ/1043م ، نقول : ونحن نشك في تاريخ وفاة أستاذه (الحراني) ، لأنّ هذا يعني أنّ (ابن بطلان) ولد نحو عام 350هـ على الأقل ، ولا يستقيم أن يقوم شيخ وقد تجاوز التسعين برحلة إلى (مصر)) (قنديل ،2010، ص 313).

مكانته العلمية : ذكر (كراتشكوفسكي) : (أنّه ينتمي إلى وسط النصارى العرب ، وهو العالم الطبيعي ، الذي نال شهرة عريضة في عصره ، وخلف عدداً من المصنفات الطبية ، التي ترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى.) (كراتشكوفسكي ،1965 ، ج 1/ص 261).

ويقول عنه (جورج سارطون) : (إنّ عدداً من المسيحيين اشتركوا في بناء العلم في حضارة الإسلام بينهم (ابن بطلان) ، وإنّه ربما كان أول من شرع في كتابة الأسلوب ، الذي جاء في كتابه (تقويم الصحة.)) (مجلة العربي ، 1977، العدد227).

وقد أبدى الكاتب العراقي (شاكر لعيبي) إعجابه به ، والسبب في ذلك (هو أنّ طبيباً يعنى بكتابة أسفاره هو أمر قليل الحدوث في تاريخ الثقافة العربية ، وإنّ تنوع اهتمامات (ابن بطلان) يدل على اتساع أفقه ، وهو ما يضعه في مصاف رحالة من طراز فريد ، ويجعله نوعاً من المثقفين الموسوعيين الذين تتسع مجالات اهتمامهم خارج نطاق تخصصهم ، وهو حال المثقف الحقيقي من كل العصور.) (جريدة الشرق الأوسط ، 2005 ، العدد 9745).

ويقول عنه (عبد الحليم منتصر) : (كان كثير المطالعة لعلوم الأوائل وكتبهم وأخبارهم ، وكان (ابن بطلان) شديد الملاحظة للمجتمع الذي عاش فيه ، فلم يصف فقط ما أصاب البلاد من أوبئة ، بل دوّن ما شهده وسمعه من الناس.) (مجلة العربي ،1977 ، العدد 227).

مؤلفاته : برع في الطب حتى فاق أساتذته ، ووضع فيه مؤلفات عديدة ، أهمها : تقويم الصحة ، دعوة الأطباء ، المدخل إلى الطب ، عمدة الطبيب ، رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد.

وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى عدد من اللغات الأجنبية خاصة اللاتينية ، كما حققت في عدة جامعات أوربية.(قنديل ، 2002، ص 313-314).

المبحث الثاني
الدراسة الموضوعية

المطلب الأول
وصف الرحلة ، وأهميتها

رحلة (ابن بطلان) : (440هـ /1049م) : كانت رحلة (ابن بطلان) من (بغداد) إلى (مصر).

الطريق : سار (ابن بطلان) في محاذاة (نهر عيسى) مرتفعاً إلى (الفرات) ، حتى بلغ (الأنبار) ، و(الرحبة) ، ثم عبر المفازة إلى (الرصافة الشامية) ، وأمضى وقتاً طويلاً ب(حلب) ، و(أنطاكية) ، و(اللاذقية).

غادر (ابن بطلان) بغداد في رمضان عام 440هـ/1049م ، ووصف انطباعاته عن الطريق من (العراق) إلى (شمال الشام) في رسالة إلى صديقه المؤرخ (هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي) ، ويحكي (ابن بطلان) عن نفسه قائلاً : (وكنت قد خرجت من (بغداد) ، وبدأت بلقاء مشايخ البلاد وخواصها ، واستملاء ما عندهم من آثارها وعجائبها، فذكر لي أخبار مستطرفة ، وعجائب غريبة ، وأقطاع من الشعر رائعة.) (القفطي،2005، ص 223).

الهدف من الرحلة : أما عن سبب رحلته ، فيقول (ابن أبي أصيبعة) : (كانت بين (ابن بطلان) و (ابن رضوان) المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتاباً ، ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ، ويسفه رأيه فيه ، فسافر (ابن بطلان) من (بغداد) إلى (ديار مصر) قصداً منه إلى مشاهدة (علي بن رضوان) ، والاجتماع به ، وجرت بين (ابن بطلان) و (ابن رضوان) وقائع كثيرة في ذلك الوقت ، ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة.) (ابن أبي أصيبعة ، بلا تاريخ ، 326).

رسالته والظروف السياسية : ومما يزيد من أهمية رسالته أنّه استطاع أن يوجه اهتمامه إلى جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قلّ أن حفل بها العرب المسلمون ، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى ، وموقفهم من البيزنطيين ، وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم ، وعلى الرغم من أنّ (ابن بطلان) كان أديباً وشاعراً ، إلا أنّ رسالته صيغت في أسلوب بسيط ، لا أثر للصنعة فيه ، هذا إذا استثنينا الافتتاحية بما يصحبها عادة من العبارات المتكلفة.

وقبل أن نعرض الرسالة التي كتبها (ابن بطلان) لابد أن نعرف من هو (ابن رضوان) المصري؟ ، هو : ((علي بن رضوان بن علي بن جعفر) الطبيب ، كان عالم (مصر) في أوانه في الأيام المستنصرية في وسط المائة الخامسة ، وكان في أول أمره منجماً، يقعد على الطريق ويرتزق ، ثم قرأ شيئاً من الطب ، وشيئاً من المنطق ، ولم يكن حسن المنظر ، ولا الهيئة ، وكان أسود اللون ، ولم يكن بالجميل الصورة ، وله مقالة في ذلك يرد فيها على من عيره بقبح الخلقة ، وقد بيّن فيها –بزعمه- أنّ الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون وجهه جميلاً ، وكان (ابن بطلان) أكثر ما يقع في (على بن رضوان) من هذا القبيل وأشباهه ، ولذلك يقول فيه :

فلما تبدى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم

وقلن وأخفين الكلام تسترا : ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم

وكان يلقبه بمسّاح الجن ، ومع هذا فقد تتلمذ علي يدي (ابن رضوان) جماعة من الطلبة ، وأخذوا عنه ، وصنف كتباً قيل عنها : إنّها لم تكن غاية في بابها ، بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة ، ول(ابن بطلان) معه مجالس ومحاورات ومسائل.

ولم يزل (ابن رضوان) ب(مصر) متصدراً لإفادة ما هو موسوم به من العلوم إلى أن توفي في حدود سنة ستين وأربعمائة.)(القفطي ، 2005 ، ص323- 324) ، (ابن أبي أصيبعة ، بلا تاريخ ، ص326)

ولما كان بين (ابن بطلان) و (ابن رضوان) مراسلات كثيرة وعجيبة فإنّه عندما قرر (ابن بطلان) مقابلته في (مصر) كتب إليه رسالة يفظعه فيها ، ويذكر معايبه ، ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم علوم الأوائل.

وإلى جانب غرضه من الرحلة والمناظرة ، قدم لنا وصفاً لبعض مدن الشام التي مرّ بها، إذ ظهر من خلاله المعالم الطبيعية والبشرية في ذلك الوقت ، كما جاء في وصفه لهذه المدن تصويراً لجانب من الحياة السياسية والاجتماعية.

كما ونلحظ من خلال نص رحلة (ابن بطلان) الإيجاز الشديد ، فقد كانت الرحلة– من وجهة نظرنا - على هيئة رسائل ، فلم تأت كاملة ، لأنّ نص رحلته فُقد ، وتعرض للضياع ، ولم يبق منه سوى مقتطفات ، لم توجد لها كتاب مستقل.

المطلب الثاني
مضمون الرسالة

يمكن تقسيم الرسالة على ثلاثة أقسام :
القسم الأول : المقدمة.
القسم الثاني : وصف الطبيعة.
القسم الثالث : الرد على (ابن رضوان).

أولاً : المقدمة ، وقد بدأها بالحديث إلى المخاطب ، والدعاء له ، ثم الموضوع الذي أنشأ الرسالة من أجله ، وظهر فيها السجع أحياناً ، يقول : (أنا لما أعتقده من خدمة سيدنا السيد الأجل ، أطال (الله) بقاءه ، وكبت أعداءه دانياً وقاصياً ، وافترضه من طاعته مقيماً وظاعناً ، أضمرت عند وداعي حضرته العالية ، وقد ودعت منها الفضل ، والسؤدد ، والمجد ، والفخر ، والمحتد أن أتقرّب إليها ، وأجدد ذكري عندها بالمطالعة مما استطرفه من أخبار البلاد التي أطرقها ، واستغربه من غرائب الأصقاع التي أسلكها خدمة للكتاب ، الذي هو تاريخ المحاسن والمفاخر وديوان المعاني والمآثر ، ليودعه -أدام (الله) تمكينه- منها ما يراه ، ويلحق ما يستوفقه ويرضاه ، وعلى ذكره فما رأيت أحداً بـ(مصر) ، وهذه الأعمال أكثر من الراغب فيه ، وكل رئيس في هذه الديار متشوق إليه متشوف ، ولوصوله مترقب متوقع ، ولو وصلت منه نسخة لبلغ الجالب لها أمنيته في ربحها ونفعها ، وإلى (الله) تعالى أرغب في نشر فضيلته الباهرة ، ومحاسنه الزاهرة بجوده.) (القفطي،2005 ،ص 222-223).

وقد بيّن (ابن بطلان) مكان ابتداء رحلته ، وكيف جمع أخبار المدن التي مرّ بها ، ووقت خروجه ، والسبب الذي دعاه إلى الإيجاز والاختصار ، يقول : (وكنت خرجت من (بغداد) ، وبدأت بلقاء مشايخ البلاد وخواصها ، واستملاء ما عندهم من آثارها وعجائبها ، فذكر لي أخبار مستطرفة ، وعجائب غريبة ، وأقطاع من الشعر رائعة ، ولضيق الوقت وسرعة الرسول أضربتُ عن أكثره ، واقتصرتُ على أقله ، وكنت خرجت على اسم (الله) تعالى وبركته مستهل شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة مصعداً في نهر (عيسى) على (الأنبار) ، ووصلتُ إلى (الرحبة) بعد تسع عشرة رحلة.) (القفطي 2005، ص 223).

تحدث عن جمعه للمعلومات ، التي كان بعضها من استملاء بعض المشايخ وأهل العلم والفضل والمعرفة ، فقد سمع منهم أخباراً ، وعجائب كثيرة ، ومقطوعات من الشعر تنال حد الإعجاب ، وهذه الطريقة في جمع المعلومات من الطرق التي تؤكد صحة الخبر ، وكذلك المشاهدة.

ونجد الأفعال الدالة على الحركة التي توحي بوجود رحلة فعلية واقعية ، عاش تجربتها ، مثل : خرجت ، بدأت ، ذكر لي ، أضربت ، اقتصرت ، وصلت.

وكذلك مشتقات الأفعال التي توحي أيضاً بالحركة ، مثل قوله : (لقاء المشايخ) ، (استملاء) ، (سرعة الرسول) ، (مصعداً).

ثانياً : وصف الطبيعة ، من المعلوم لنا أنّ الطبيعة محل جذب أنظار الرحالة في رحلاتهم ، إذ إنّها تستوقفهم طويلاً متأملين غرائبها وعجائبها ، ولا يخلو نص الرحلة من صور الطبيعة ، والصور التي رسمها لنا (ابن بطلان) إنّما هي لبعض مدن الشام ، التي كانت في ظل الخلافة العباسية ، ومنها :

الرحبة : يقول : (ووصلتُ إلى (الرحبة) بعد تسع عشرة رحلة ، وهي مدينة طيبة ، وفيها من أنواع الفواكه ما لا يحصى ، وبها تسعة عشر نوعاً من الأعناب ، وهي متوسطة بين (الأنبار) و(حلب) و(تكريت) و(الموصل) و(سنجار) و(الجزيرة) ، وبينها وبين قصر (الرصافة) مسيرة أربعة أيام.) (القفطي ، 2005 ، ص223).

بهذه الكلمات البسيطة وصف (ابن بطلان) مدينة (الرحبة) ، ولكنها تضمنت ما تتصف به هذه المدينة من الجمال ، وطيب الزرع ، والفواكه المتعددة ، والعمران الذي يحيط بها من حيث توسطها بين المدن.

الرصافة : يقدم (ابن بطلان) (للرصافة) وصفاً بعبارات سهلة ، وأفكار متسلسلة ، فقد ذكر المسافة بين (الرصافة) و(الرحبة) ، ثم القصر الذي يسمى باسمها ، والبيعة التي تأخذ لون الذهب من خارجها ، ثم ذكر شيئاً من تاريخ (الرصافة) ، وقد جددها (هشام بن عبد الملك) ، ثم عاد مرة أخرى إلى البيعة ليصف الماء من تحتها في صهريج قاعه من المرمر ، وانتقل إلى السكان وعملهم ، وهم أهل بادية ، ووصف الاتساع العظيم الذي يحيط بذلك القصر ، ثم الخروج من (الرصافة) إلى (حلب) ، يقول : (وهذا القصر - يعني قصر الرصافة- حصن دون دار الخلافة (ببغداد) مبني بالحجارة ، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب ، أنشأه (قسطنطين بن هيلانة) ، وجدد (الرصافة) وسكنها (هشام بن عبد الملك) ، وكان يفزع إليها من البق في شاطئ (الفرات) ، وتحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة ، معقود على أساطين الرخام ، مبلط بالمرمر ، مملوء من ماء المطر، وسكان هذا الحصن بادية ، أكثرهم نصارى ، معاشهم تخفير القوافل ، وجلب المتاع ، والصعاليك مع اللصوص ، وهذا القصر في وسط برية مستوية السطح ، لا يرد البصر من جوانبها إلا الأفق ، ورحلنا منها إلى (حلب) في أربع رحلات.) (الحموي ،1977،ج 3/ ص 47 -48).

حلب : يقول عن دخوله (حلب) : (ورحلنا من (الرصافة) إلى (حلب) في أربع رحلات، وهي بلد مسور بالحجر الأبيض ، فيه ستة أبواب ، وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان ، وفي إحداها مكان المذبح الذي كان يقرب عليه (إبراهيم) عليه السلام ، وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبأ فيها غنمه ، وإذا حلبها أضاف بلبنها الناس ، فكانوا يقولون : حلب أم لا؟ ، ويسأل بعضهم بعضاً عن ذلك ، فسميت (حلب) ، وفي البلد جامع ، وست بيع ، وبيمارستان صغير .) (القفطي ،2005 ، ص 223).

في وصف (حلب) نجد أول ما يلفت نظر (ابن بطلان) السور الأبيض القوي المبني بالحجارة ، وعدد أبوابه ستة أبواب ، ثم هذا الصرح الذي يدل على العلو والارتفاع والعظمة حيث القلعة التي شاهدها ، وفي أعلاها مسجد وكنيستان ، فهو يوضح الحياة الدينية في هذا المكان ، مما يجعلنا نفهم أنّ بهذا المكان يوجد مسلمون ونصارى.

وفي سبب تسميتها ب(حلب) يعود بذاكرته إلى تاريخ الأنبياء ليذكر حدثاً تاريخياً يرجع إلى زمن نبي الله (إبراهيم عليه السلام) ، وصفات الكرم التي كان يشتهر بها ، فقد كان يحلب غنمه ليضيف الناس بلبنها ، ونسبة فعل الحلب هي السر في تسمية المدينة ب(حلب).

وذكر (ابن بطلان) الحالة الدينية للمدينة ، والمذهب الذي عليه فقهاؤها بقوله : (والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية.) (القفطي ،2005 ، ص 223).

وأشار إلى الماء العذب الذي يستخدم للشرب في هذه المدينة بقوله : (وشرب أهل البلد من صهاريج ، وعلى بابه نهر يعرف بـ(قويق) ، يمد في الشتاء ، وينضب في الصيف.) (القفطي ،2005 ، ص 223).

و(ابن بطلان) يعتمد على ذاكرته التي لا تخلو من أسماء الأعلام من الشعراء ومن يتصل بهم ، فقد شاهد دار (علوة) صاحبة (البحتري) ، والتي ربما ذكرها من أجل مكانة (البحتري) ، يقول : (وفي وسط البلد دار (علوة) صاحبة (البحتري).) (القفطي ،2005، ص 223).

ويبدو أنّ بيئة هذه المدينة لا تساعد على نمو بعض النباتات مما جعلها تعتمد على ما يجلب من الخارج ، يقول : (وهو قليل الفاكهة والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من الروم ، وما ب(حلب) موضع خراب.) (القفطي ،2005 ، ص 223).

أنطاكية : يقول : (خرجنا من (حلب) طالبين (أنطاكية) ، وبين (حلب) وبينها يوم وليلة، فبتنا في بلدة للروم تعرف بـ(ع) ، فيها عين جارية ، يصاد منها السمك ، ويدور عليها رحا ، وفيها من الخنازير ، والنساء العواهر ، والزنا ، والخمور أمر عظيم ، وفيها أربع كنائس ، وجامع يؤذن فيها سراً.) (القفطي ،2005 ، ص 223).

بعد خروجه من (حلب) قصد (أنطاكية) ، فوجد المسافة التي بينها وبين (حلب) يوم وليلة ، وقد أدركه المبيت في بلدة للروم تعرف (بعم) ، ويبدو أنّ هذه البلدة كانت تحت سيطرة الروم في ذلك الوقت نظراً لما فيها من أنواع الفساد ، وكثرة الكنائس ، وقلة المساجد التي يؤذن فيها سراً.

وأول ما لفت أنظار (ابن بطلان) ذلك العمران البنائي والزراعي ، وحالة الأمن التي تتوفر في المدينة من أسوار وحراس ، يقول : (و(أنطاكية) أرض ما فيها خراب أصلاً إلا أرض زرع للحنطة والشعير بجنب شجر الزيتون ، وقراها متصلة ، ورياضها مزهرة ، ومياهها متفجرة ، و(أنطاكية) بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بنوبة أربعة آلاف حارس ينفذون من (القسطنطينية) من حضرة الملك، فيضمنون حراسة البلد سنة ، ويستبدل بهم في الثانية.) (القفطي ،2005 ، ص 223-224).

وتحدث عن معالم المدينة الطبيعية والحضارية : (وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد من الجبل إلى قمته ، ويستتم دائرة ، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة ، تبين تبعدها من البلد صغيرة ، وهذا الجبل يستر عنها الشمس ، فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية ، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب ، وفي وسطها قلعة (القسياني) ، وكانت دار (قسيان) الملك الذي أحيا ولده (بطرس) رئيس الحواريين ، وهو هيكل طوله مائة خطوة ، وعرضه ثمانون ، وعليه كنيسة على أساطين ، ودائر الهيكل أروقة يجلس فيها القضاة للحكومة ، ومعلمو النحو واللغة.) (القفطي ،2005 ، ص 224).

ثم يصف لنا أعجوبة من عجائب الدنيا في هذه المدينة بقوله : (وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان الساعات ، يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة ، وهو من عجائب الدنيا ، وفي أعلاه خمس طبقات ، في الخامسة منها حمامات وبساتين ومقاصير حسنة، وتخر منها المياه ، وهناك من الكنائس ما لا يحد كثرة كلها معمولة بالفص المذهب ، والزجاج الملون ، والبلاط المجزع.) (القفطي ،2005 ، ص 224).

(ابن بطلان) حريص على أن يذكر المدة التي يقطعها المسافر في سفره ، وهذا يدل على أنّ الرحلة واقعية ، وقد تمت بالفعل ، كما يدل على دقة الرحال ، لأنّه يعُد جواباً لما سيسأل عنه إذا عاد من رحلته ، كما يمنح الكلام عنصر الحركة الذي تتميز به الرحلة، فقد صور العمران المنتشر خلال الطريق بعبارة موجزة بسيطة ، ويصور أمام أعيننا المزروعات التي تنبت بجانب شجر الزيتون كالحنطة والشعير مما يدل على جمال الطبيعة ، وألوانها الخضراء ، وحدائقها المزهرة ، ثم القوة المندفعة من المياه المتفجرة.

ويتوقف أمام ذلك السور العظيم ، والحصن الحصين بأبراجه الثلاثمائة والستين ، والحراس حوله ، وعددهم أربعة آلاف حارس ، أصلهم من (القسطنطينية) ، ومدة خدمتهم سنة ، فإذا انتهت السنة جاء غيرهم.

ويرسم لنا شكلاً دائرياً يصف فيه المدينة ، فهي تمثل نصف دائرة قطرها يتصل بالجبل ، أما النصف الثاني فيكتمل بالسور العظيم الذي يرتفع مع الجبل ، ويتابع الناظر هذا المنظر ليصل إلى قمة الجبل ، ويزيد هذا الارتفاع من بهاء القلعة التي بأعلى الجبل.

ثم يزيد في وصف هذا الارتفاع ، ويبالغ فيه ، إذ الشمس لا تصل إلى قلب المدينة إلا في ساعة معينة من النهار في الساعة الثانية ، ويصف الأمر بأنّه أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ونجده كذلك يتحدث عن المياه والوقود.

وقد أعجب (ابن بطلان) بالحمامات مبيناً السبب : (وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة من اللاذاذة والطيبة ، فإنّ وقودها من الآس ، وماؤها سيح.) (القفطي ،2005 ، ص 224).

ويتحدث عن دور النصارى في علاج المرضى ، حيث يوجد (في البلد بيمارستان ، يراعي البطريك المرضي فيه بنفسه.) (القفطي ، 2005 ، ص 224).

وإن كان (ابن بطلان) قد وصف طبيعة البلد من الداخل ، فلم يفته وصف طبيعة البلد من خارجها ، حيث هذا النهر الذي قال عنه : (وفي ظاهر البلد نهر يعرف ب(المقلوب) ، يأخذ من الجنوب إلى الشمال ، وهو مثل نهر (عيسى).) (القفطي ،2005، ص 224).

ومن الأديرة الموجودة خارج المدينة أيضاً : (وخارج البلد دير (سمعان) ، وهو مثل نصف دار الخليفة ، يضاف فيها المجتازون ، يقال : إنّ دخله في السنة أربعمائة ألف دينار ، ومنه يصعد إلى جبل (اللكام) ، وفي هذا الجبل من الديارات ، والصوامع ، والبساتين ، والمياه المتفجرة ، والأنهار الجارية ، والزهاد ، والسياح ، وضرب النواقيس في الأسحار ، وألحان الصلوات ما يتصور معه الإنسان أنّه في الجنة ، وفي (أنطاكية) شيخ يعرف ب(أبي نصر بن العطار) قاضي القضاة فيها ، له يد في العلوم ، مليح الحديث والإفهام.) (القفطي ، 2005 ، ص 224)

و(أنطاكية) كانت لها نصيب في أن يعود إليها (ابن بطلان) بعد خروجه من (مصر) غاضباً على (ابن رضوان) ، يقول (القفطي) : (فأقام بها ، وقد سئم كثرة الأسفار ، وضاق عطفه عن معاشرة الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع ، فنزل بعض ديرة (أنطاكية) ، وترهب ، وانقطع إلى العبادة.) (القفطي ، 2005 ، ص 222).

اللاذقية : بعد خروج (ابن بطلان) من (أنطاكية) قصد (اللاذقية) ، فوصفها بما فيها من معالم الحياة البشرية ، يقول : (وخرجت من (أنطاكية) إلى (اللاذقية) ، وهي مدينة يونانية ، ولها ميناء ، وملعب ، وميدان للخيل مدور ، وبها بيت كان للأصنام ، وهو اليوم كنيسة ، وكان في أول الإسلام مسجداً ، وهي راكبة البحر ، وفيها قاض للمسلمين ، وجامع يصلون فيه ، وآذان في أوقات الصلوات الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس ، وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم.) (القفطي ،2005 ، ص 224).

نتعجب عندما نجد مسجداً تحول إلي بيت للأصنام ، ثم إلى كنيسة وفقاً لمشاهدة (ابن بطلان) ، وذلك –من وجهة نظرنا- لأنّ هذه المدينة كانت تحت سيطرة الدولة البيزنطية.

ونقل كذلك صورة الصراع والتنازع بين آذان المسلمين ، وأصوات أجراس الكنائس.

ويبدو لنا أنّ (ابن بطلان) كان يميل إلى التفصيل والإطالة ، ولكن منعه من هذه الرغبة ضيق الوقت ، كما قال عن إعجابه بشخصيات كان يريد الأخذ منهم في (اللاذقية) : (وفي البلد من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر أحوالهم ، والألفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم وأذهانهم.) (القفطي ،2005 ، ص 225).

ويذكر (ابن بطلان) صور الفساد الاجتماعي والأخلاقي في (اللاذقية) ، يقول : (ومن عجائب هذا البلد أنّ المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة، وينادي على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلتها تلك ، ويؤخذن إلى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها ، فإنّه متى وجد خاطياً مع خاطية بغير خاتم المطران ألزمه جناية.) (القفطي ، 2005 ، ص 224-225).

ثالثاً : الرد على ابن رضوان ، يبدأ في هذا الجزء بمقدمة يوجه كلامه فيها إلى (ابن رضوان) ، ولكنه يستخدم ضمير الغائب لا المخاطب ، ويبدو –كما يقول البعض- أنّه لم يتمكن من مقابلة (ابن رضوان) ، وقد بعث بهذه الرسالة إلى صديقه (هلال بن المحسن الصابي) ، فقال فيها : (الانتساب إلى الصنائع والاشتراك في البضائع موخاة وذمم وحرمات وعصم ، أدنى حقوقها بذل الإنصاف ، وأحد فروضها اجتناب الحيف والإسراف ، ويتصل بي عن الشيخ -أدام (الله) توفيقه ، وأوضح إلى الحق طريقه- بلاغات ، إذا قايستها بما ألفيته من حدة طباعه كدت أصدق بها ، وإن عزوته إلى ما خصه (الله) به من العلم قطعت بكذبها ، وفي كلا الحالين فإنّي أرى الإغضاء عما أمضى من كلامه ، وأرمض من فعاله من الفعال الواجب ، والمفروض اللازب ، إذ كنت أثق برجوعه إلى الحق وإن مال في شعب الباطل ، لاسيما أنّي لم أوجده سبيلاً إلى المباينة ، ولا سعيت إلا فيما أكد أسباب المودة والمحافظة ، ولم اتخذه بمسألة سهلة ولا صعبة ، وهو -أدام (الله) توفيقه- جمينتي في هذه الدعوى ، وقد كانت وردت منه إليّ مسائل ، وأجبت في الحال عنها ، وتراخيت إلى هذه الغاية عن إنفاذها إبقاء على هذه المودة ، وبلغني بعد ذلك أنّه قال على سبيل المباهلة : يسألني عن ألف مسألة ، واسأله مسألة واحدة ، ولو شئت أن أفصح وأوضح لفعلت ، ولكن :

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

لأنّي أعتقده والجماعة يجرون مني مجرى الأعضاء ، تمرض تارة ، وتصح أخرى ، ولم أزل على هذه المشاكلة إلى أن أوعز إليّ من بعض الجهات الجليلة بما لم يسعني خلافه ، ولا أمكنني الاجتناب عنه في عمل هذه المقالة.) (القفطي ،2005، ص 225).

ويأتي بعد ذلك دور المسائل والأسئلة المختلفة التي يريد بها أن يبهت خصمه ، ويقطع عليه حجته ، ويفحمه بها ، يقول : (الفصل الخامس : في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة في مقدمات صادقة ، يلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية.) (القفطي ،2005 ، ص 230).

هذه المسألة تبرز معرفة (ابن بطلان) بالبلاد ، وما يناسبها من أغذية تلائم حالة الجو لديهم ، فهذا من باب الدراسة الطبيعية للبيئة مع استعمال ثقافته الطبية ، واستعمال براهين على كل عبارة يقدمها ، يقول : (فنسبة الصيف إلى بلاد الحبشة نسبة الشتاء إلى بلاد الصقالبة ، ونحن نرى أنّ الأمر يجري على خلاف هذا ، لأنّها تستعمل في الصيف الأغذية الباردة ، وفي الشتاء الأغذية الحارة ، وفي هذا أيضاً شك على اعتنائها في الشتاء بالأغذية الحارة ، والحر كامن فينا ، وفي الصيف الأغذية الباردة ، والبرد في الباطن مستول علينا لانفشاش الحرارة من مسامنا ، وهذا ضد قانون الصناعة ، وأطرف من كون الغذاء حاراً مع كون أجوافنا في الشتاء حارة خروج البول أبيض ، وحدوث الأمراض البلغمية ، وخروج البول نضجاً في الصيف ، وحدوث الأمراض الصفراوية مع برد أجوافنا في الصيف.) (القفطي ،2005 ، ص 231).

وكذلك الرد على (ابن رضوان) في اعتقاده في جذب المغناطيس ، يقول (ابن بطلان) في أسلوب ساخر : (فأما اعتقاده أنّ جذب المغناطيس للحديد يكون بخطوط تخرج من الحجر ، فيلزم منه أن يكون كلما جذب الحجر الحديد نقصان الحجر وزيادة الحديد إذا كانت هذه الخطوط لها ميل طبيعي ، ولأنّها أجسام طبيعية يلتزم تحركها إلى المكان لا في زمان ، وهذا محال ، وقد خطر ببالي سؤال يحتسب به الشيخ من جملة الألف مسألة ، وهو : هل الحديد يطلب الحجر شوقاً إليه ، أم الحجر يجذبه إليه بقسر منه؟.) (القفطي ،2005 ، ص 235).

ثم بعد هذه المسائل وغيرها ختم (ابن بطلان) رسالته بخاتمة يطلب فيها أن يقرأ (ابن رضوان) ما كتبه قراءة مدقق ، ولا يترك منه فصلاً ولا باباً ، وليراجع نفسه قبل يوم الحساب ، يقول : (فليتصفح الشيخ ما أوردته تصفح ذوي الألباب ، ويجيب عن فصل فصل وباب باب ببراهين يزول معها الارتياب ، وليتحقق أنّ اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب ، وأنّ لنا موقف حساب ، ومجمع ثواب وعقاب ، تتظلم فيه المرضى إلى خالقهم ، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم ، وأنّهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسبي ، ولا يغضون عنه كما أغضيت عن ثلب عرضي ، فليكن من لقائهم على يقين ، ويتحقق أنّهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين ، و(الله) يوفقنا وإياه للعمل بطاعته ، والتقرب إليه بابتغاء مرضاته ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل.) (القفطي ،2005 ، ص 236).

وهكذا وجدنا (ابن بطلان) رجلاً سجل خطواته وتنقلاته في نص يبرز مظاهر الطبيعة في أرض الشام ، ويبرز ثقافته وشخصيته.

المبحث الثالث
الدراسة الفنية

المطلب الأول
الخصائص المميزة للمضمون

يتميز مضمون الرحلة بطابع يحمل فكر كاتبه وعاطفته وثقافته ، هذا الطابع مرجعه اهتمام الرحال بجوانب معينة في رحلته ، لذلك فإنّ بعض الباحثين يذهبون إلى أنّ الرحلة تتميز بعدة طوابع مضمونية مختلفة ، يكاد الرحالون يجمعون عليها ، وقد تستوفي جميعها في عمل واحد ، وهذه الطوابع هي : الطابع الموسوعي والمعرفي ، والطابع التوثيقي ، والطابع الكشفي ، والطابع الفردي والذاتي، والطابع الإنساني ، والطابع الشعبي ، والطابع الجمالي ، والطابع النقدي ، والطابع الفكاهي. (موافي ،1995، ص 48).

أما عن رحلة (ابن بطلان) ، فقد تميزت بعدة طوابع مختلفة عكست فكره ، ومن هذه الطوابع :

الطابع الموسوعي المعرفي : ويقصد به أن يقدم الرحال جديداً في ميدان المعارف ، فمعرفة الجديد هدف من أهداف الرحلة ، وقد قال البعض : إذا لم تضف الرحلة جديداً إلى عالم المعرفة صارت عادة ضارة. (موافي ، 1995 ، ص 48-49).

أما (ابن بطلان) ، فقد وجد لنفسه فرصة في أن يضيف إلى عالم الأطباء جديداً ، عندما وجد في نفسه الرغبة في الرد على (ابن رضوان) لتصحيح ما التبس عليه فهمه ،

فكانت النتيجة هذه المعلومات الطبية التي ضمنها نص رسالته ، والردود التي دعمها بالحجج والبراهين.

وبجانب ما يحمله نص الرسالة من ثقافة طبية ، قدم (ابن بطلان) وصفاً موجزاً لما شاهده من مناظر الطبيعة في المدن التي مرّ بها ، ولأنّه نصراني فقد وصف معالم المجتمع المسيحي من كنائس ضخمة ، وبيمارستان يباشر فيه كبار رجال الدين المسيحي المرضى بأنفسهم.

الطابع الفردي أو الذاتي : ومن مظاهر الطابع الذاتي انتصار الرحال لنفسه ، والدفاع عنها كما نلاحظ في ردود (ابن بطلان) على خصمه (ابن رضوان) ، فكان الدافع الأساسي لرحلته هو الانتصار لنفسه ، والرد على خصمه ، ولم يجعل (ابن بطلان) كل اهتمامه في السفر ، بل كان اهتمامه في الوصول إلى خصمه ، لذلك لم يصف الطريق بالتفصيل، وقد ظهرت عليه ملامح التعجل والإيجاز.

ومن فوائد الطابع الذاتي أنّه ينتج لنا تجربة صادقة مليئة بالمغامرات ، التي عاشها صاحبها ، فيجد القارئ المتعة والإثارة عند قراءة النص.

الطابع الاجتماعي : من أهم ما يميز الرحلة أنّها اجتماعية ، فالعنصر الأساسي فيها هو المجتمع ، فنجد الرحال في نص الرحلة يصف المجتمعات التي حلّ بها ، ويتضمن هذا الوصف جوانب متعددة للمجتمع ، مثل : الجانب الثقافي ، والديني ، والاجتماعي ، والتاريخي.

أما (ابن بطلان) ، فنجده في وصفه للمدن التي مرّ بها ركز على معالم المجتمع المسيحي، فوصف الكنائس ، والبيمارستان الذي يقوم رؤساء النصارى بمعالجة المرضى فيه ، كما وصف مقومات الحياة الإنسانية في بعض المدن.

الطابع النقدي : الذي يميز الرحال هو كونه قادراً على نقد كل ما يرى ، فلا يكتفي بمجرد المشاهدة والوصف ، ولكنه يتعداها إلى التفسير والنقد.

وإذا قايسنا ذلك الطابع النقدي على شخص مثل (ابن بطلان) نجد أنّه تميز بهذا الطابع في ردوده ومناظراته ل(ابن رضوان) ، فالمناظرات تحمل انتقادات يوجهها الشخص للشخص الآخر ، وهي أفضل ما يتصف بهذا الطابع إذا كان صاحبها منصفاً عادلاً ، يظهر ما له وما عليه.

الطابع الفكاهي : ومن الفكاهات -والتي هي إلى السخرية أقرب- ما نجده عند (ابن بطلان) عندما تناول مسألة من المسائل التي ناقش فيها (ابن رضوان) ، وهي مسألة جذب حجر المغناطيس للحديد ، و إذ قال فيها على سبيل التهكم : (فأما اعتقاده أنّ جذب المغناطيس للحديد يكون بخطوط تخرج من الحجر ، فيلزم منه أن يكون كلما جذب الحجر الحديد نقصان الحجر وزيادة الحديد إذا كانت هذه الخطوط لها ميل طبيعي، ولأنّها أجسام طبيعية يلتزم تحركها إلى المكان لا في زمان ، وهذا محال ، وقد خطر ببالي سؤال يحتسب به الشيخ من جملة الألف مسألة ، وهو : هل الحديد يطلب الحجر شوقاً إليه ، أم الحجر يجذبه إليه بقسر منه؟.) (القفطي ،2005 ، ص 235).

الطابع الجمالي : الرحال في أغلب الأحيان يخرج من أجل جمال الطبيعة ، حتى وإن كان خروجه لغرض آخر ، إلا أنّ الجمال يستوقفه ، فيتأمل ، ويتفاعل مع الطبيعة ، فيصور تلك الملاحظات والمشاهدات ، التي أثرت في وجدانه ، فيخلط الخيال بالواقع، فيصور لنا ما كان جميلاً بأبدع الصور ، وتزداد الصورة حلاوة إذا كان الرحال محباً للرحلة والطبيعة ، مستعدة حواسه لاستقبال المؤثرات الخارجية ، ليزودنا بأجمل صورة تجعل القارئ يحس بها ، ومن الجمال أيضاً الجمال البشري ، الذي يراه الرحال في طبائع البشر الذين يقابلهم.

أما (ابن بطلان) ، فنجده يستحسن الصور الجميلة في الطبيعة بقوله : (وكنت خرجت من (بغداد) ، وبدأت بلقاء مشايخ البلاد وخواصها ، واستملاء ما عندهم من آثارها وعجائبها ، فذكر لي أخبار مستطرفة ، وعجائب غريبة ، وأقطاع من الشعر رائعة.) (القفطي ،2005 ، ص 223).

وفي (الرحبة) أعجب بجمال الطبيعة ، حيث (هي مدينة طيبة ، وفيها من أنواع الفواكه ما لا يحصى ، وبها تسعة عشر نوعاً من الأعناب.) (القفطي ، 223)

ويصف بيعة في (الرصافة) (ظاهرها بالفص المذهب ، وتحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة ، معقود على أساطين الرخام ، مبلط بالمرمر ، مملوء من ماء المطر.) (الحموي ،1977 ،ج 3/ص 47-48).

ووجد في (حلب) الجمال يكمن في العمران وعدم الخراب : (وما ب(حلب) موضع خراب.) (القفطي ،2005 ، ص 223) ، كما وجد في (أنطاكية) : (و(أنطاكية) أرض ما فيها خراب أصلاً.) (القفطي ،2005 ، ص 223-224).

وفي مقابل الجمال الأخلاقي نجد القبح الأخلاقي ، ف(ابن بطلان) في وصفه (اللاذقية) نقل صورة انتشار الفاحشة ، والتصريح بالزنا بشكل يدعو للدهشة والغرابة، فقد أصبح أمراً عادياً يصرح به المطران. (القفطي ،2005 ، ص 224-225).

الطابع الفكري : يحمل نص الرحلة فكرة الكاتب التي يهدف إليها ، ويريد أن يوصلها إلى القارئ ، فالفكرة هي التي تدفعه لتسجيل رحلته من لحظة خروجه حتى الانتهاء منها بهدف إثباتها وإبرازها.

أما (ابن بطلان) ، فقد شغله كيف يواجه (ابن رضوان)؟ ، واشتغلت في رأسه فكرة السفر من أجل مقابلة خصمه ، والرد عليه ، فقام وسلك طريقاً عبر المدن ، يشاهد مناظر الطبيعة ، ويصف ما يشاهده إلى أن وصل حيث يريد ، فبدأ يطلق لفكره العنان في الرد على (ابن رضوان) انتصاراً لنفسه وفكره ، ولمّا لم يوفق في المقابلة شق عليه أن يعود دون أن يعلن فكرته ، فأرسل تقريراً عن رحلته ، بث فيه أفكاره إلى صديق له ، ليكون خير شاهد عليه في صدقه ، ففكرته ظهرت بمظهر الوضوح والواقعية.

المطلب الثاني
الخصائص المميزة للأسلوب

إذا نظرنا إلى الأسلوب فإنّنا نلتفت إلى أمرين ، أولهما : طريقة تعبير الكاتب ، والآخر : القالب الذي تتشكل فيه تلك التعبيرات والأفكار.

فالأسلوب : هو طريقة التعبير الخاصة بأديب من الأدباء في فن من الفنون ، أو هو : القالب أو الإطار الذهني الذي تنصب فيه التراكيب اللغوية بشكل يفيد ما يقصد بالكلام. (ثويني ،2006 ، ص 15).

وعندما نتحدث عن الأسلوب في أدب الرحلة فإنّنا ننظر إلى عدة مباحث تمثل الإطار الذي تمثلت فيه أفكار الكاتب ، ومنها :

اللغة : ويقصد باللغة الألفاظ والعبارات التي حملت فكر صاحبها ، واستوعبت ما يجول في خاطره ، وجسدت شخصيته من خلال تجاربه ، ومعاناته ، ومعجمه اللغوي حتى تبرز تجربته الخاصة ، وطريقته في التفكير والتحليل.

أما (ابن بطلان) ، فنجده يستخدم الكلمات التي تعبر عن شخصيته بوصفه عالماً في الطب ، مثل :كلمة (بيمارستان) ، والتي تعني مكان علاج المرضى ، وذكره كلمات مثل: الدم ، القلب ، الأعصاب ، الشرايين ، العظام ، الدماغ ، الأمراض البلغمية، الأمراض

الصفراوية ، السوداء ، الكبد ، كما ذكر أسماء علماء متخصصين في الطب أخذ بآرائهم ، مثل : (جالينوس) ، (أفلاطون) ، (أرسطوطاليس) ، (حنين بن إسحاق) (القفطي،2005 ، ص 222 وما بعدها).

ومما يدل على أنّه نصراني اهتمامه بذكر الكنائس التي شاهدها. (القفطي ،2005 ، ص 223-224).

كما نلحظ عنده استخدام الجمل القصيرة ذات المعاني الكثيرة كونها صادقة معبرة عما يجول في نفسه.

وبجانب قصر الجملة ، واحتوائها على فعل الحركة ، نجد ترتيب الأفكار ، فكان يبدأ بذكر المسافة بين المدينتين التي خرج منها ، والتي وصل إليها ، ثم يصف المدينة ، ثم يذكر شيئاً من تاريخها ، ثم يذكر بعض ما فيها من مبان ، وزرع ، ومظاهر طبيعية ، ومعايشهم ، وعملهم.

أما حديثه عن (اللاذقية) ، فقد اختار (ابن بطلان) أقل الألفاظ ليعبر بها عن كثير من أحوال (اللاذقية) ، فكلمات (ميناء ، ملعب ، ميدان للخيل) تحتوي على الحركة ، فهو هنا يترك مجالاً لخيال القارئ ليتخيل حركة السفن ، والمراكب ، والركوب والنزول ، ورحلات الصيد وغيرها ، وفي الملعب يتخيل أنواع اللعب واللهو ، وفي ميدان الخيل حيث المتسابقون والمتدربون ، وهذا الإيجاز من بلاغة الكاتب. (القفطي ،2005 ، ص 224).

كما نلحظ عنده تنوع السجع ، وعدم التزامه نمطاً واحداً ، ويتضح ذلك في مقدمة رسالته. (القفطي ،2005 ، ص 222-223).

على أية حال ، فسر الرحلات القديمة –من وجهة نظرنا- ليس في أهمية معلوماتها فقط ، بل في جودة لغتها ، وسلاسة نثرها ، حيث كان الكاتب من الرحالة يكتب ملاحظاته وخبراته بلغة جميلة نابضة بالحياة ، وهذا ما يميزه عما يكتبه اليوم بعض الصحافيين عن البلدان التي يزورونها بلغة صحفية ركيكة سريعة الاستهلاك.

الحوار : من الألوان التي تجعل النص له تأثير في النفس ، ويزداد القارئ شوقاً لقراءته، والحوار تزداد حدته في المناظرات ، والتي سماها (ابن بطلان) المباهلة ، يقول : (وبلغني بعد ذلك أنّه قال على سبيل المباهلة يسألني عن ألف مسألة ، واسأله مسألة واحدة ، ولو شئت أن أفصح وأوضح لفعلت.) (القفطي ،2005 ، ص 225).

فوجه إليه (ابن بطلان) مسائل كثيرة ، من بينها مسألة قال عنها : (يحتسب بها الشيخ من جملة الألف مسألة.) (القفطي ،2005 ، ص 235).

ويبدو على (ابن بطلان) إحاطته بقدر كبير من علوم عصره وقومه من طب ، وبلاغة، وأدب ، فقد كان قوياً في رده ، مقنعاً مفحماً ، يبدأ المسألة أو المقالة بمقدمة ، ثم يشرح الموضوع الذي يريده ، ثم ينتهي بخاتمة تحتوي على النتيجة التي يهدف إلى الوصول إليها.

التصوير : الصورة التي ينقلها الكاتب يستخدم فيها أدوات مختلفة من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وغيرها من الألوان التي تبرز الصورة واضحة ، ليجعل القارئ أو السامع يتخيل معه تلك المشاهد .

وإذا نظرنا إلى (ابن بطلان) نجد أنّ الجزء الأول من رسالته يحتوي على كنايات قصد بها هجاء (ابن رضوان) ، كما نجد بعض التشبيهات ، فشبه (ابن رضوان) بالعضو المريض من الجسد ، الذي يحتاج إلى الصبر والعلاج ، يقول : (لأنّي أعتقده والجماعة يجرون مني مجرى الأعضاء ، تمرض تارة ، وتصح أخرى.) (القفطي ،2005 ، ص 225).

وعندما تحدث عن تأثير الشك في العلم قال : (إنّ الشك أتى من تقصيره بالعلم ، وكلما فسد العلم قوي الشك ، وكلما قوي الشك فسد العلم ، فضعف العلم يؤدي إلى قوة الشك ، وقوة الشك تؤدي إلى ضعف العلم ، وهما شيئان كل واحد منهما علة لصاحبه كالسوداء التي هي سبب لرداءة الفكر ، ورداءة الفكر سبب لاحتراق الأخلاط ، وانقلابها إلى السوداء ، والسوداء كلما قويت أفسدت الفكر ، والفكر كلما فسد قويت السوداء ، ولأنّ الفاسد الفكر لا يتصور فساد فكره ، فلا يسرع في زوال مرضه كالذي به عضة كلب يعتقد أنّ الماء يقتله ، وفيه حياته ، وكلما امتنع منه أدى إلى هلاكه ، وهذا هو الداء العياء الذي يعجز عن طبه وبرئه الأطباء.) (القفطي ،2005 ، ص 226).

ومن التشبيهات البليغة قوله : (إنّ المعلم أب روحاني ، وما كنت أحب للشيخ التظاهر بعقوق الآباء.) (القفطي ،2005 ، ص 228-229) ، فصور المعلم بالأب ، وصور عدم تقدير الطلاب لمعلميهم بعقوق الآباء.

ثم يشبه كبار العلماء بالأنجم الزهر في مكانتهم ، يقول : (فما ظن الشيخ بأناس يجرون في العالم مجرى الأنجم الزهر ، أبصارنا عند بصائرهم تجري مجرى الخفاش عند عيون العقبان في ضوء النهار.) (القفطي ،2005 ، ص 228).

ومن الصور الجميلة عندما تحدث عن أحد العلماء ، وبيّن فضله ومنزلته العلمية ، يقول: (فالعقول في ضيافته إلى اليوم يمتارون من فضله ، ويعيشون في بره.) (القفطي ،2005، ص 228).

فشبه العقول بالضيوف ، وشبه العالم بالرجل الكريم السخي ، الذي لا ينقطع عطاؤه.

وفي عدم التمييز بين الحق والباطل صور (ابن بطلان) خصمه : (كمن رام إدراك الأنوار بحاسة الذوق ، والأصوات بحاسة الشم فلم يدرك شيئاً.) (القفطي ،2005 ، ص 233).

ومن المسائل التي تناولها مسألة التسرع في فهم كتب القدماء ، ففي هذه المسألة جاء ببعض مخزونه الثقافي ليقوي حجته ، فأخذ يعدد شخصيات من العلماء القدامى ، ويذكر جمودهم في العلم ، ليبين أنّهم تمهلوا كثيراً أمام المسائل قبل أن يصدروا أحكاماً ، فعلينا أن نتمهل أمام علمهم قبل الحكم عليه ، وفي هذه المسألة ظهر هذا التصوير المجازي الجميل: (ضحك الحق منا.) (القفطي ،2005 ، ص 227).

تضمين الشعر : يقول (ابن بطلان) في وصف (حلب) : (وفيها من الشعراء جماعة، منهم : شاعر يعرف ب(أبي الفتح بن أبي حصينة) (الحموي ،1977 ، ج 2/ ص283-284) ، ومن جملة شعره قوله :

و لما التـــقينا للـــوداع ، و دمـعها و دمعي يفيضان الصبابة و الوجدا
بكت لؤلؤاً رطباً ، ففاضت مدامعي عقيقاً ، فصار الكل في نحرها عقداً

وفيها كاتب نصراني له قطعة في الخمر أظنه (صاعد بن شامة) :

خافت صوارم أيدي المازجين لها، فألبستْ جسمها درعاً من الحبب

`وفيها حدث يعرف ب(أبي محمد بن سنان) ، قد ناهز العشرين ، وعلا في الشعر طبقة المحنكين ، فمن قوله :

إذا هجوتكم لم أخش صولـــتكم و إن مدحـت فكيـف الري باللهب
فحين لم ألق لا خوفاً و لا طمعاً رغبت في الهجو ، إشفاقاً من الكذب

وفيها شاعر يعرف ب(أبي العباس) يكنى ب(أبي المشكور) ، مليح الشعر، سريع الجواب ، حلو الشمائل ، له في المجون بضاعة قوية ، وفي الخلاعة يد باسطة ، وله أبيات إلى والده :

يا أبا العباس والفضل! أبا العباس تكنى

أنت مع أمي ، بلا شك ، تحاكي الكركدنا

أنبتتْ ، في كل مجرى شعرة في الرأس ، قرنا

فأجابه أبوه :

أنت أولى بأبي المذمو م بين الناس تكنى

ليت لي بنتاً ، ولا أنت ، ولو بنت يُحنا

على أية حال ، فذكر أماكن أو وصفها من خلال القصيدة ليس بالغريب على الشعر العربي ، وكما هو معروف فالقالب الأساسي الذي صيغ فيه الشعر العربي هو القصيدة، التي كان القسم الأول منها يفرد عادة لذكر المحبوب والأطلال ، حيث كانت تنزل قبيلة الشاعر من وقت لآخر مكاناً ينال حظه من الذكر في القسم الأول من القصيدة. (كراتشكوفسكي ، 1965 ،ج 1/ ص 43).

ولأنّ أدب الرحلة وعاء يتسع لأكثر من لون من ألوان الأدب ، فهو أدب متنوع الأسلوب ، ولعل هذا التنوع هو الذي أكسب أدب الرحلة القيمة الأدبية ، كما أنّه يساعد القارئ على التواصل مع النص ، والانتقال مع الكاتب دون ملل.

التأثير والتأثر في رحلة (ابن بطلان) :

يبدو لنا أنّ (ابن بطلان) تأثر باليونانيين ، والأخذ منهم نظراً لحركات النقل والترجمة التي تمت في هذا العصر ، فمن المسائل التي تناولها : مسألة التسرع في فهم ما كتبه القدماء ، فنصدر عليه أحكاماً ، ربما تحتمل الخطأ ، وذلك بسبب سوء الفهم ، يقول : (من عادات الفضلاء عند قراءتهم كتب القدماء أن لا يقطعوا في علمائها بظن إذا رأوا في المطلب تبايناً وتناقضاً ، لكن يخلدون إلى البحث والتطلب.) (القفطي ،2005 ، ص 226) ، وقوله : (من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتب القدماء أن لا يقطعوا في علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة ، إذ من عادات القدماء إذا وقفت عليهم المطلب ، ولاح فيها تباين وتناقض أن يعودوا إلى التطلب ، ولا يتسرعوا إلى إفساد المطالب.) (القفطي ،2005 ، ص 227).

كما أثنى على العلماء القدامى الذين بذلوا جهداً كبيراً من أجل فهم المسائل ، يقول : (هذا والذي في عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة ، ونحن وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخلدنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا ، وخسرنا أشرف ما فينا ، ولهذا يجب على كل نسمة عالمة دونهم في الرتبة إذا رأت أقاويلهم متباينة أن لا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة، ولا ترتب إذا رأيت (أرسطوطاليس) يعتقد أنّ القلب منشأ الأعصاب ، والعروق ، والشرايين ، والعظام ، وجميع القوى ، ثم رأيت (جالينوس) ينسب مبدأ كل واحد من القوى إلى واحد واحد من الأعضاء الثلاثة -أعني الدماغ والقلب والكبد- ، ويقول : كل واحد منها ينشأ بنظر خوادمها ، ولا تقطع بصواب أحدهما ، لأنّ (أرسطوطاليس) ينظر في القوى من جهة طباعها ، و(جالينوس) ينظر فيها من جهة استقراء الفعل المحسوس في العضو الخاص لها.) (القفطي ،2005 ، ص 227).

كما أخذ عن (أرسطوطاليس) بعض العبارات ، مثل : (قال (أرسطوطاليس) : الإنسان الجاهل ميت ، والمتجاهل عليل ، والعالم حي صحيح.) (القفطي ،2005 ، ص 227).

وأخذ عن (أفلاطون) قوله : (قال (أفلاطون) : لا تعادوا الدول المقبلة ، فتدبروا بإقبالها.) (القفطي ،2005 ، ص 229).

هذا ونلحظ تأثر عباراته بثقافته ، فكثرت العبارات والمصطلحات التي تبين من خلالها أنّه طبيب ، وذلك عندما أراد توضيح مدى تأثر العلم بالشك ، يقول : (إنّ الشك أتى من تقصيره بالعلم ، وكلما فسد العلم قوي الشك ، وكلما قوي الشك فسد العلم ، فضعف العلم يؤدي إلى قوة الشك ، وقوة الشك تؤدي إلى ضعف العلم ، وهما شيئان كل واحد منهما علة لصاحبه كالسوداء التي هي سبب لرداءة الفكر ، ورداءة الفكر سبب لاحتراق الأخلاط ، وانقلابها إلى السوداء ، والسوداء كلما قويت أفسدت الفكر، والفكر كلما فسد قويت السوداء ، ولأنّ الفاسد الفكر لا يتصور فساد فكره ، فلا يسرع في زوال مرضه كالذي به عضة كلب يعتقد أنّ الماء يقتله ، وفيه حياته ، وكلما امتنع منه أدى إلى هلاكه ، وهذا هو الداء العياء الذي يعجز عن طبه وبرئه الأطباء.) (القفطي ،2005 ، ص 226).

وبهذا قد تم التعريف ب(ابن بطلان) ، وما قدمه من إسهامات في مجال الرحلة ، فهي بحق إسهامات عظيمة المضمون ، تعرفنا من خلالها على مدى ثقافة صاحبنا ، وثقافة عصره ، وتعرفنا كذلك على المعالم الطبيعية والتاريخية من خلال نصوص الرحلة التي وردت إلينا.

الاستنتاجات

مما تقدم يتبين لنا :

أولاً : كان (ابن بطلان) كثير المطالعة لعلوم الأوائل ، وكتبهم ، وأخبارهم ، فهو طبيب وأديب ، اهتم بكتابة أسفاره ، وهو أمر قليل الحدوث في تاريخ الثقافة العربية ، فتنوع اهتمامات (ابن بطلان) يدل على اتساع أفقه ، وهو ما يضعه في مصاف رحالة من طراز فريد ، ويجعله نوعاً من المثقفين الموسوعيين الذين تتسع مجالات اهتمامهم خارج نطاق تخصصهم ، وهو حال المثقف الحقيقي في كل العصور.

ثانياً : كان بين (ابن بطلان) و (ابن رضوان) مراسلات كثيرة وعجيبة ، فإنّه عندما قرر (ابن بطلان) مقابلته في (مصر) كتب إليه رسالة يفظعه فيها ، ويذكر معايبه ، ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم علوم الأوائل.

ثالثاً : إلى جانب غرضه من الرحلة والمناظرة قدم لنا وصفاً لبعض مدن الشام التي مرّ بها ، حيث ظهرت من خلاله المعالم الطبيعية والبشرية في ذلك الوقت ، كما قدم في وصفه لهذه المدن تصويراً لجانب من الحياة السياسية والاجتماعية.

رابعاً: مما يزيد من أهمية رسالته أنّه استطاع أن يوجه اهتمامه إلى جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قلّ أن حفل بها العرب المسلمون ، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى ، وموقفهم من البيزنطيين ، وعاداتهم ، وأماكن العبادة عندهم ، وعلي الرغم من أنّ (ابن بطلان) كان أديباً وشاعراً ، إلا أنّ رسالته صيغت في أسلوب بسيط ، لا أثر للصنعة فيه.

التوصيات

أولاً : دراسة أدب الرحلة من الناحية الأدبية ، إذ وجدنا بعض الدراسات تناولته من الناحية العلمية فقط.

ثانياً : التفريق بين الرحالة والجغرافيين ، وبين الرحالة العرب وغير العرب خاصة في العصور الوسطى.

المصادر

القرآن الكريم

ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي المعروف بابن أبي أصيبعة ،بلا تاريخ ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، د.ط ، تحقيق : د.نزار رضا ، دار مكتبة الحياة، بيروت .

الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ، 1977م ، معجم البلدان ، د. ط ، دار صادر ، بيروت .

أبو داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، 2009 م ، سنن أبي داود ، د. ط ، حققه : شعيب الأرناؤوط و محمد كامل ، دار الرسالة العالمية ، دمشق .

ابن العبري ، أبي الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري ، 1977م ، تاريخ مختصر الدول ، ط 1، وضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، 2005 م ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط1، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، 2003 م ، لسان العرب ، دار الحديث، القاهرة .

المراجع

أرسلان ، شكيب أرسلان ، بلا تاريخ ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، د. ط ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

ثويني ، حميد آدم ثويني ،2006 م ، فن الأسلوب ، ط1 ، دار صفاء للنشر ، عمان .

الزركلي ، خير الدين الزركلي ، 2002 م ، الأعلام ، ط15 ،دار العلم للملايين .

زيدان ، جرجي زيدان ،1913 م ، تاريخ آداب اللغة العربية ،د. ط ، مطبعة الهلال ، مصر.

سليمان ، سالم عبد الرازق سليمان ، 2008 م ، ترسل الشعراء في الأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، مصر .

فرح ، فايز فرح ، بلا تاريخ ، رحلات وحكايات ، د .ط ، دار المعارف ، مصر .

فهيم ، حسين محمد فهيم ، 1989 م ، أدب الرحلات ، د . ط ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت .

قنديل ، فؤاد قنديل ،2002 م ، أدب الرحلة في التراث العربي ،ط1 ، الدار العربية للكتاب، القاهرة .

كراتشكوفسكي ، 1965 م ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، د. ط ، نقله إلى العربية : صلاح الدين هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

مصطفى ، طارق مصطفى ، 2019م الرسائل بين العهدين : الفاطمي والأيوبي ،د .ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر.

موافي ، ناصر عبد الرازق الموافي ،1995 م ، الرحلة في الأدب العربي ، ط1 ، مكتبة الوفاء، مصر .

الدوريات

جريدة الشرق الأوسط ، أغسطس 2005م ، العدد 9745 .

مجلة العربي ، أكتوبر 1977م ، العدد 227.